

٩٣/١٢/١

• دريافت

٩٤/٣/١٨

• تأييد

التوظيف الفني في سيميائية الألوان عند ابن الرومي

محمد خاقاني أصفهاني *

داود نجاتي **

الملخص

لم يكن في بدأ الأمر بين الشعر والنثر بوناً شاسعاً. كان الشعر كلمات موزونة تحدى بها الإبل، لا غموض فيه ولا تعقيد، فلم يكن يعز على قارئ شعر أن يستخرج فحواه. ولكنه لم يبق على سلاسته ووضوحه قيد الأبد، أخذت معانيه تتسع وأوزانه تتكاثر، وما ونى الشعراء بهتمون بشعرهم اهتماماً بالغاً، فمستهم من يقرب شعره حولاً لتفقيحه ويستفرغ جهده في إجادته ما شاء الله له أن يجتهد، ويستعين من الطاقة ما يملك وما لا يملك في تمييقه والسمو به إلى قمة عالية متشبتاً بأساليب البيان وشتى ضروب البديع. مما استخدمه الشعراء لتنميق أشعارهم وسيرها في الناس هو استخدام ضروب الألوان وتلوين أشعارهم بها، وابن الرومي من أهم الشعراء الذين يتشبتون بهذه المادة الشعرية لتدبيح أشعاره. تناولت هذه الدراسة توظيف اللون عند ابن الرومي ومدت إلى ولوح شعرية الألوان عند الشاعر ومدى قدرته على توظيفها دلاليًا وجماليًا؛ لأن نشأة الشاعر في بيئة تتصف بالجمال وتعدد الألوان؛ دفعه للاهتمام بالفن التشكيلي وممارسة الرسم. ويهدف إلى إحصاء الظواهر اللونية في شعره وإبرازها؛ وقد اعتمد البحث منهج التحليل والوصف والإحصاء في تناول الألفاظ اللونية.

قد أكثر ابن الرومي في أشعاره من استخدام مادة اللون كثرة بالغة، وهي في شعره بمنزلة علبته الألوان عند الرسام، كآني بالشاعر أراد أن يجعل من ديوانه طبيعة فيها الألوان والأزهار والأشجار تجرى تحتها الأنهار. إنه يحسن استخدام الألوان وتسهده على ذلك حاسته التصويرية، و يبرز فاعلية الألوان ودلالاتها في لوحاته ليستقطب انتباه الملتقى إلى حد أكثر. ومتى ما أشبعنا النظر في صور الشاعر الخيالية؛ نرى أن الألوان الأبيض، والأسود، والأحمر، والأخضر، والأصفر والأزرق هي أكثر ما استخدمه الشاعر من الألوان على التوالي.

الكلمات الرئيسية:

ابن الرومي، اللون، التوظيف الفني، الدلالة.

mohammadkhaghani@yahoo.com

* أستاذ في اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان

** طالب مرحلة الدكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان

١. المقدمة

الشعر تمثيل و تصوير قبل أن يكون لفظاً مزخرفاً و كلاماً مزركشاً. كل من الشاعر و الرسام يجسّمان الأشياء و الأفكار فى أشكال محسوسة يمكن رؤيتهما و إن تختلفان فى طريقة الصناعة. دقة حواس الشاعر حينما ينشد لنا الكلمات فى لوحات طبيعية متعددة كدقة خيال الرسّام حينما يبرز الألوان و الأشكال. إنّ الألوان طلائع للصورة البصرية و أبرز ما يدلّ عليها أنّ الألوان من العناصر الأساسية فى عالم الحسيات، فنحن لانستطيع أن نصف الأشياء التى نعيش بينها و نجدها حولنا من غير التعبير عن ألوانها. إنّ علاقة الإنسان بالألوان علاقة ذاتية قديمة، و أثر اللون بين فى حياة الإنسان. فالألوان استقرت فى وجدان الأمة على نحو خاصّ، و ارتبطت بأمر عديدة فى البيئة و الحياة، ممّا ساهم فى تشكيل تصوّر عام لهذه الألوان. فلقد أثبتت الدراسات الحديثة أيضاً أنّ الألوان لها تأثير على خلايا الإنسان، فخلق الله تعالى السماء بهذا اللون، و جعل الزهور لها ألوان متعددة، و الشجر باللون الأخضر، كل تلك الأمور لم تخلق عبثاً و لكن لحكمة ربانية. «اللون من أهم ظواهر الطبيعة و أجملها، و من أهم العناصر التى تشكّل الصورة الفنية، لما يشتمل عليه من الدلالات الفنية و النفسية و الاجتماعية و الرمزية. لذلك ينبغى دراسة اللون فى الشعر من خلال ربطه بسياق النصّ الشعريّ، فالسياق الشعريّ هو الذى يحدّد وظيفته و فاعليته» (آباد و بلاوى، ١٣٩١: ٩)، و من ثمّ عنيت العربية عناية فائقة بالألوان، حتّى بات هذا الموضوع، من الموضوعات التى تفرّد لها أبواب خاصة، فالشعراء من أهمّ الذين يستخدمون الألوان فى شعرهم و يصورونها لكى تبلغ أشعارهم بهذه الوسيلة مكاناً مرموقاً و درجة سامية من القبول عند سامعيه و دارسيه. كان ابن الرومي رساماً فناناً و مصوراً ماهراً، و المتلقى لشعره يلاحظ أنّ اللون ينتشر عبر مساحة النصوص بشكل لافت للنظر، و أكسبت

الصورة الشعرية صوراً لونية متألفة وجميلة، فلقد تناول هذا البحث توظيف الألوان في شعر ابن الرومي. و الذي يهمننا هنا، على وجه الخصوص، هو دلالة الألوان في شعر ابن الرومي من حيث العلامة و الرمز أى دراسة التعبيرات التي لا يكشف معناها بمجرد تفسير كل كلمة من كلماتها، و التي لا يمكن ترجمتها حرفياً.

٢. سؤال البحث و منهجه

- كم استعان الشاعر ابن الرومي بالألوان لتدبيح شعره؟ و ما هو سبب استخدامها؟

لأجل ذلك، جئنا لكل لون بشواهد متعددة مع شرح للبيت و تقييمه و بيان ما استعمل فيه من لون أو ألوان أحياناً، إذ يحدّد الباحث مفهوم اللون و دلالاته، و أثره في استجلاء صور ابن الرومي الشعرية. فقد كان منهجنا في هذا البحث توصيفياً - تحليلياً، لأننا استفدنا من النظريات الحديثة في علم النفس، و المنهج السيميائي في تحليل النصوص و المنهج الوصفي في عرض المادة.

٣. سابقة البحث

الدراسات التي تناولت مادة اللون في الشعر و الأدب نخصّ منها: رسالة «دلالات الألوان في شعر نزار قباني» لأحمد عبدالله محمد حمدان بجامعة النجاح الوطنية. و رسالة «اللون و دلالاته في شعر البحتري» لنصرة محمد محمود شحادة بجامعة الخليل. و دراسة «إيقاع الألوان في شعر عزالدين المناصرة» لحيدر محمد جمال سيد أحمد المنشورة في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية. و دراسة «دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي» مقال مشترك لمرضية آباد و رسول بلاوى المنشورة في إضاءات

نقدية (فصلية محكمة). و أيضاً رسالة أمانى جمال عبد الناصر الموسومة بـ «دلالة الألوان فى شعر الفتوح الإسلامية فى عصر صدر الإسلام» فى الجامعة الإسلامية - غزة. و لكن بالنسبة إلى الشاعر ابن الرومى ما وجدنا بحثاً و افياءً تناول توظيف الألوان فى شعره، لهذا الأمر تحاول هذه الدراسة فى إحصاء الألوان المستعملة و دورها فى صور ابن الرومى الخيالية، و تعالجها معالجة نقدية تعتمد الفحص.

٤. اللون

٤. ١. خصائص الألوان التعبيرية

يدلّ لفظ اللون فى اللغة على تغيّر الهيئة و الصورة. و التلونّ يعنى تغيير الصورة من شكل إلى آخر، و من حال إلى أخرى (لسان العرب، مادة لون). إنّ ألفاظ الألوان فى اللغة العربية كثيرة، و قد اختلفت أسماؤها باختلاف الحقل الدلالىّ الذى يردّ فيه. أمّا الألوان البورية فى المعجم العربى هى: الأبيض، و الأسود، و الأخضر، و الأحمر، الأزرق و الأصفر (صالح، ١٩٨٢: ١٠٨)، و بقية الألوان تنضوى تحتها. إنّ اللون ليس مجرد زركشة أو زينة أو زخرفة و حسب، و إنّما يعكس ما بعد الرؤية البصرية، ليشمل البعد الانفعالىّ الذى يمكن أن يكون مرتبطاً مع دلالات الألوان. إنّ لكلّ لون من الألوان طبائع و خصائص و تأثيرات فى الطبيعة و فى حياة الإنسان. و إذا نظرنا فى الألوان و جدنا أنّ الألفاظ التى استخدمت للتعبير عنها جاءت مناسبة لها:

«فالأسود لفظ يدلّ على الغوص فى الأعماق حيث الظلمة و العتمة. و قد استشفّ هذه الدلالة من حدّة الدال و اتّساع الواو. أمّا الأبيض فهو لفظ يدلّ على الإشعاع و الانطلاق لما فيه من اجتماع الياء الدالة على اتّساع، و الضاد بما فيها من نفور و إفلات من المركز. و الأبيض كما نلاحظ يقابل الأسود فى

الدلالة و التركيب الصوتي» (عبدالقادر أبو عون، ٢٠٠٣: ٥). و يماثل الأبيض و الأسود في هذا التقابل الأخضر و الأصفر، «فالصفرة لون يدلّ على الذبول، و الجفاف، لما فيه من خفة الفاء، و ما تفيده الراء من التكرار، ممّا جعله يبدو في لفظه كنبته هزيلة، جافة تطير مع حركة الريح. بينما يدلّ الأخضر على الخصب و الحياة، لما في الخاء من طراوة و امتلاء بالماء، و يساعد تكرار الراء على جريان الماء في العروق، ممّا يزيد في طراوته و نداوته» (المصدر نفسه) و«أمّا الأحمر فهو لون فيه التوهج و الحرارة المستمدة من الحاء. و يدلّ الأزرق على العبور و النفاذ إلى قرار معين» (المصدر نفسه).

لكلّ لون معنى نفسى يتكون نتيجة لتأثيره الفيزيولوجى على الإنسان. و يمكن ببساطة أن نقول إنّ لونا باهتا رمادياً يستدعى الرتابة و الحزن، و أنّ لونا فاتحاً وردياً يستدعى الفرح و الرغبة دون معرفة الأسباب المنطقية لهذه الاستجابة. كما يمكن القول إنّ لبعض الألوان الصارخة (أحمر، أزرق، أخضر، أصفر، أسود، أبيض) مفعولاً نفسياً أكثر من الألوان غير الصارخة. و بصفة عامة يمكننا أن نقول إنّ الألوان الفاتحة أكثر مرحاً و فرحاً، أمّا الألوان القاتمة فهى أكثر حزناً، و أنّ الألوان الساخنة هى ألوان ديناميكية مثيرة فى حين أنّ الألوان الباردة هى ألوان مهدئة و مريحة.

٢.٤. الألوان و دلالاتها

١- الأحمر: تعددت دلالات اللون الأحمر و اختلفت استخداماته. و يرمز هذا اللون إلى الخطر و الدم و الجهاد و الغضب. فالأحمر يبعث الحركة و النشاط فى استعماله؛ لذلك كانت له معانى لصيقة بألغاز هى الأخرى تثير الإغراء فى صاحبها، من مثل الموت الأحمر (لاشتداد القتل)، و حمراء الظهيرة (شدة الحرّ)، و حمراء النعم (كرائمها).

٢- الأزرق: اللون الأزرق أحد الألوان الأساسية؛ فهو أمام مرأى العين، و لا تخفى على الناظر زرقة البحار و السماء، و لهذا فإن اللون الأزرق يشكل مساحة كبيرة في الاهتداء الطبيعي لمناظر الدنيا الفسيحة، و لكنه في موازين الآخرة «يصبح علامة مغايرة دالة على المجرمين؛ يلون عيونهم و يشوه خلقتهم» (سامى يوسف و وعبد الرؤوف زهدى، ١٩٩٨: ٢٠٧).

٣- الأصفر: ارتبط اللون الأصفر بحياة الإنسان؛ فهو من الألوان الأولية التى لها مساحة معتبرة و مظاهر مختلفة تتجسد فى الكائنات الحية و النباتات. فأخذ اللون الأصفر إيحائته من فصل الخريف لما يسيطر عليه من دلالات المرض و الموت و الجفاف.

٤- الأخضر: هو لون لا تقل أهميته عن باقى الألوان الأساسية، و«يرمز هذا اللون إلى الخصب و النماء و التجدد و الرخاء و النعيم و السعادة» (عمر، ١٩٨٢: ١٦٥). و هو رمز الحياة ذات التجدد، فهو «قرين الشجرة و يرتبط بالحقول و الحدائق، و لذا فهو مرتبط بهدوء الأعصاب» (عجينة، ١٩٩٤: ٢٠٠). فالدلالة الغالبة للون الأخضر الإيجابية و المنفعة التامة لكل ما يدب على سطح الأرض.

٥- الأبيض: يدلّ هذا اللون على الوضوح و النقاء و الجمال. ويرمز إلى السلم، و إلى الطهارة و الصفاء و النقاء و الإشراق، و النور و التفاؤل و البراءة. و إلى جانب هذه المعانى الإيجابية للون الأبيض، «فقد اتخذ أحياناً دلالات سلبية، فقد ذمه العرب فى مجال الشيب، ذلك أن ظهور الشيب نذير بدنو الأجل و تولى أيام الشباب، كما ذم فى باب المفاخرة بين السوداء و البيضاء فى قصص ألف ليلة و ليلة» (محمّد محمود شحادة، ٢٠١٣: ١٠).

٦- الأسود: يعدّ اللون الأسود مقابلاً للون الأبيض و نقيضه الذى يعرف به؛ فهو لون قاتم دالّ على الظلمة و الكآبة و الجهل، و الموت و الحزن. «يرتبط

اللون الأسود بصورة عامة عند العرب بدلالات التشاؤم و الحزن و الألم، و قد وردت في اللغة ألفاظ كثيرة له تجمع في الأعم الأغلب على أنه ضد الجمال» (المصدر نفسه: ٢٥).

٥. نبذة عن حياة ابن الرومي و أسلوبه:

ابن الرومي هو من كبار شعراء العرب في العصر العباسي، و «من أشعر شعراء الوصف عند العرب» (فاخوري، ١٤٢٤: ٧٦٧/١)، فهو أكثر من الوصف، بحيث أنه كان في مدحه و رثائه و غزله و هجائه و صافاً بارعاً. فلقد «استطاع ابن الرومي أن يستقرى الجمال بشغف، و يتبين أدق الخطوط و الألوان، ليؤلف من كل ذلك لوحات كاملة تختلج بروحه، و تنطق بلسان حالاته النفسية المختلفة» (ضيف، ١٩٤٣: ٣٠٥/٤)، بحيث نستطيع أن نجعل من أشعار الشاعر «معياراً لفهم طبيعة الحياة فعده من الشعراء الكبار الذين لهم المقدرة بتكوين رؤية فلسفية للحياة» (فيدوح، ٢٠٠٩: ١٤١). كانت الطبيعة كل مشاعره و عواطفه، و «بالنسبة له تحقيقاً لأمانيه و أحلامه الفاشلة، إذ يصف المشاهد متوحدة بين مناظرها حتى غدا وصفه الوجداني للطبيعة، بوحاً و إعتراضاً بخفايا ضميره، فهذا إشتهر بـ «الفاني في الطبيعة»» (روشنفكر و باشا زانوسى، ١٤٢٧: ٧١). بل لقد تحول عاشقاً لطبيعة و ألوانه عشقاً لا تألفه عند شعراء العربية من قبله. و المتلقى لشعر ابن الرومي يلاحظ أن اللون ينتشر عبر مساحة الأبيات بشكل لافت للنظر، بحيث نرى الألوان و ما فيها تزدهم في شعره أحياناً إلى حد فاق الاكتفاء. فإن اللون من أهم ما يميز عناصر الصورة عند ابن الشاعر، حيث لعبت المفردات اللونية العديد من الوظائف داخل صورته الشعرية، و استطاعت أن تضيف لها قيمة عالية و مذاقاً خاصاً. فقد عمد الشاعر إلى توظيف الألوان في شعره بدلالات حملت مفاهيم تعارف عليها العرب و

عايشوها، كتفاؤلهم من اللون الأبيض و تشاؤمهم من اللون الأسود. و قد حملت بعض الألوان دلالات مناقضة للدلالات المعروفة أحياناً، فإنه أتى بالسياق الحزن و الألم للون الأحمر و هذا كان مخالف لعادة العرب و الشعراء في ذلك الوصف. فقد مزج ابن الرومي بين لونين أو أكثر، مما جعل الدلالات اللونية أكثر اتساعاً. و الأمر الذي يميّز الشاعر من الشعراء الآخرين هو أنّ مستوى التوظيف الفني للألوان عند ابن الرومي قد يفهم من طرق متعدّدة، فبعض التعبيرات تبدو مغرقة في الاستعارات و الكنايات إلى درجة الغموض، و يقف التأويل أمامها حائراً يبحث عن مرجعية بلاغية يفكّ بها خيوط الإبهام.

٦. توظيف الألوان و أبعاده الفنية في أشعار ابن الرومي

٦.١. اللون الأبيض

اللون الأبيض النقي فيدل على العقلانية حيث تميل شخصيات هذا اللون إلى العقل و الاتزان الفكري، و لا يقفنى وجهها شيء و لا تعاني من مشكلات أو اضطرابات و تهوى تعدد الصداقات و خصوصاً الناجحة و هى شخصيات محبوبة إجمالاً نظراً لطفها و عذوبتها و أدبها الجمّ و ليس لهذا اللون آثار سلبية، لذا فهو رمز للنقاء و الحيوية و الوضوح (لوشر، ١٣٧١: ٣٧-٢٣). يرتبط اللون الأبيض في الثقافة العربية بالطهر و البراءة، و أحياناً أخرى كانوا يريدون بالبياض طلاقة الوجه و بشره. و الأبيض رمز للنقاء و الوداعة و البراءة، و هو عند العرب صفة معنوية، لا حسية محددة، و ظف في الشعر مجازياً؛ لأنّ العرب «لا تقول: رجل أبيض من بياض اللون، إنّما الأبيض عندهم الطاهر النقي من العيوب، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا: أحمر» (لسان العرب، مادة ببيض). و «الأبيض فهو لون يدلّ على الإشعاع و الانطلاق لمّا فيه من اجتماع الياء الدالّة على الاتّساع، و الضاد بما فيها من نفور و إفلات

من المركز» (أبو صفيه، ١٩٩٠: ١٢٥). ورد اللون الأبيض في أحد عشر موقعاً في القرآن الكريم، و كانت دلالاته تشير الى الصفاء و النقاء و العمل الصالح. فقد جعل الله تعالى البياض علامة على حسن المصير في الآخرة، قال تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (آل عمران ٣: ١٠٦-١٠٥). فإن بعض الآيات توضح لنا أن الطهارة و النقاء و الإيمان و الصفاء تتجسم ببيضاء في القيامة فتصبح وجوه الصالحين و الطاهرين بيضاء لامعة. فمن كان من أهل نور الدين و سُم بياض اللون و إسفاره و إشراقه، و ابيضت صحيفته و أشرقت، و سعى النور بين يديه و يمينه. و من كان من أهل ظلمة الباطل و سُم بسواد اللون و كسوفه و كمده و اسودت صحيفته و أظلمت، و أحاطت به الظلمة من كل جانب.

٦. ١. ١. الشاعر و مظاهر البياض

يطغى اللون الأبيض على بقية الألوان لدى ابن الرومي، و هو لون تسيد الألوان في شعرية ابن الرومي اللونية، و «من وجهة نظر سايكولوجية و اجتماعية، هذا اللون لون الطهارة و الخلو و الصفاء و النقاء و المحبة و الخير و الحق و العدالة» (قاسمي و ممتحن، ١٣٩٠: ٨٦). قد أكثر الشاعر من استخدام البياض في شعره، مما يجعل ديوانه مشرقاً متألقاً، فالأبيض أكثر الألوان استخداماً عند ابن الرومي حيث وظفه في أغراض متعددة. يطالعنا هذا اللون من خلال أسلوبين: أحدهما الأسلوب الصريح المباشر، و الآخر غير الصريح، مثلاً الروم كناية عن اللون الأبيض و الزنج تلويح للون الأسود، و هو المستنتج من السياق الشعري، و في الحاليتين كلتيهما تتشعب دلالاته و تتنوع إحياءاته. إنه يستعمل

البياض لشتى الأشياء منها: النساء الحسان و الشعر و اليد و الوجه و غير ذلك. إنه يستعمل أكثر ما يستعمل البياض للنساء الحسان على شاكلة قوله:

كَبُرْتُ وَفِي خَمْسٍ وَخَمْسِينَ مُكْبَرُ وَشَيْتُ فَالْحَاظُ الْمَهَا مِنْكَ نُفَرُ
إِذَا مَا رَأَتْكَ الْبَيْضُ صَدَّتْ وَرَبِّمَا غَدَوْتَ وَطَرْفُ الْبَيْضِ نَحْوَكْ أَصُورُ

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ١٧٤/٣)

إن لِكَبِرِ السن علامات كثيرة لكن أولها ظهوراً و أكثرها قلقاً للإنسان هو الشيب، و قد روى لنا القرآن الكريم حالة القلق التي اعترت نبينا زكريا (ع) حين خاطب ربه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) (مريم/١٩: ٤). ففي هذه اللوحة، هرم ابن الرومي و اعترته الشيوخة التي تكرهها الحسان كرهاً و ينفرن منها نفوراً، فيصددن و يعرض عنه لما أصاب شعره من البياض الذي يعرب عن شيبه و هنّ له كارهات، و لكنهنّ يتطلعن إليه إذا تولى، إذ لا يبوح شيبه و ابيضاض لحيته. إذن، في الصورة هذه، تظهر الحبيبة - في ظلّ استعارة تصريحية أصلية^١ - بيضاً إشارة إلى بياض بشرتها من جانب، و نضاعة روحها الخيرة و توهجها من جانب آخر، فضلا عن أنّها تجلّي قدرتها على إحالة حياة الشاعر إلى نهار مشرق بياض زاخرة أجواؤه بالبهجة و السرور. إنّ الشاعر استخدم لفظ البيض مرتين، كلاهما للنساء الجميلات، لما فيهن من بياض و لمعان. كان ابن الرومي يعاني كثيراً من شيبه و يبكي شبابه بكاء حاراً، فكثرت في أشعاره الحديث عن المشيب و حلول شعرات بيض في مفرقه حتى تغلب على السود منها، مما يسبب أن تنأى منه الحسان و يكرهنه، أنظره يقول:

شَعْرَاتُ فِي الرَّأْسِ بَيْضٌ وَدَعَجُ حَلَّ رَأْسِي جِيلَانِ رُومٍ وَرَنْجُ

(المصدر نفسه: ٣٥/٢)

كبر ودنا المشيب، فأخذت شعرات بيض تلوح في رأسه و تتكاثر حتى

صار شعره لونين، أبيض وأسود وهو يشبه بياض رأسه بالروم و سواده بالزنج، بما استخدم من فن بديعي رائع هو «الطى و النشر». نرى في المصراع الثانى الأسلوب غير الصريح للإشارة باللون الأبيض و اللون الأسود. قد استخدم ابن الرومى اللون الأبيض فى هذا البيت لتغير لون بعض شعرات رأسه وذيب البياض فيها بما أصابها من الطعن فى السن. فالبياض هنا ظاهر لون الشعر فى المشيب. و يقول أيضاً:

سَلِبْتُ سَوَادَ الْعَارِضِينَ وَقَبْلَهُ
وَبَدَّلْتُ مِنْ ذَاكَ الْبَيَاضِ وَحُسْنِهِ
بَيَاضَهُمَا الْمَحْمُودَ إِذْ أَنَا أَمْرُدُ
بَيَاضاً ذَمِيمًا لَا يَزَالُ يُسَوِّدُ

(المصدر نفسه: ١١١/٢)

فى هذه الصورة لقد استخدم ابن الرومى اللون الأبيض بدلالته المباشرة على نفس اللون. نرى فى البيتين لَوَحْتَيْنِ. فالشاعر فى إحداها كان شاباً لا شعرة فى وجهه، فكان ذا وجه أبيض لامع و لكن لم يلبث أن سلب بياضه إذ ظهرت لحيته و خلف سوادها بياض و جناته، و فى الأخرى قد كبر و بُدِّلَ من سواد لحيته بياضاً لا يبرح يخضبه أو يُسَوِّدُه نفوراً من المشيب و فراراً منه. استعمل البياض مرتين، مرة لوجهه فى ريعان شبابه بياضاً محموداً تستحسنه البيض و تتوق إليه، ومرة أخرى لايبضاض لحيته، مما يبعد عنه الغوانى، فهو مذموم مكروه. فإنَّ حضور اللون الأبيض فى الشطر الثانى من البيتين الثانى فى هذه اللوحة الاستعارية غير محبب، إذ إنَّه نظير الشحوب و النضوب المرتبط بأجواء الشيخوخة الكئيبة المؤذنة برحيل و شيك، فينفر الشاعر من هذا اللون و أجوائه و يهرب منه. و آية نفور الشاعر من هذا البياض اقترانه بأجواء الموت الذى أشار إليه بذكر صفة «ذميماً»، و ظهرت قدرة الشاعر على توظيف اللون؛ عندما تحول اللون الأبيض إلى لون الشيخوخة و الموت. فمن خلال تجربة ابن الرومى يتضح أنه يكتتب لما اختلسته منه سنون عمره الماضية، هو يكتتب

لذهاب الجمال و فقد النضارة. إذن، من خلال التضاد بين اللونى الأبيض و الأسود تتضح الصورة متجانسة، فتارة البياض محمودٌ رمزٌ للشباب و السواد مذمومٌ حيث سودّ وجهه و تارة أخرى البياض مذمومٌ لأنه دلالة على الشيب و السواد مستحبٌ جميلٌ فهو رمزٌ للشباب. و فى الختام، عبر الجمع بين التضاد- الأبيض و الأسود- تحققت فى النهاية صورة لونية جميلة. و يستخدم البياض كثيراً لليد و لكنه لا يريد ببياض اليد لونها بل يقصد منه كثيراً الكرم و العطاء و يريد به نعم الله و آلائه أحياناً. مما أراد به المعنى الأول و هو الكرم و العطاء، قوله:

وَمِنَ الْجَوْرِ أَنْ تُجَازَى يَدٌ بِيءٍ — ضَاءٌ مِنْ مَخْلَصٍ يَدًا سَوْدَاءَ
(المصدر نفسه: ٧٢/١)

ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان، من أوتى بخير فعليه أن يوفى الخير أو يأتي بأحسن منه، إنه من الظلم أن تحسن إلى شخص و هو يجازيك شراً مكانه، و ذلك جور لا بعده من جور. استخدم الشاعر اللون الأبيض لليد ناوياً العطاء، و أتى بعكسه فى عجز البيت و نعت اليد بالسواد و أراد به الشر. لهذا فالبياض عند الشاعر صفة معنوية و حسية، و جاء فى المرتبة الأولى فى أشعاره. و مما جاء فى المعنى الثانى قوله:

قُلْ فِيهِ مَا شِئْتُ مِنْ شَهْرٍ تَعَهَّدُهُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لَلَّهِ بِيضَاءُ
(المصدر نفسه: ٣٠)

ينوه الشاعر فى مقطوعة بشهر أيلول بما فيه من فواكه ورقة الجو و الماء فيه، شهر تأتيك فيه ريحه سحراً بطيب الرياحين، فهذا شهر يحفظه الله سبحانه و يرعاه و يتفقدته بالنعم و الخيرات. و يتضح للقارىء أن كلمة «بياض» لا تدلّ هنا على اللون نفسه مما تراه العين. بل المقصود منها الصفاء و الجلاء و الخير، فيكنى باليد البياض عن النعم و الخيرات فتتضح براعته عند استخدام اللون

الأبيض في صُورِهِ. يطالعا اللون في هذا البيت في الأسلوب غير الصريح، فالبيضاء هنا كناية عن نعم الله وآلائه، وظهرت قدرة الشاعر على توظيف اللون عندما تجلّت يد الله ببيضاء.

و يكثر ابن الرومي من استخدام اللون الأبيض للوجه ناوياً شيئين، أحدهما هو لون الوجه بعينه، والآخر هو الفرح و البشاشة. و مما جاء به من ابيضاض الوجه للفرح قوله:

بِخِضَابٍ فِيهِ اَبْيَضَاضٌ لِيُوجِهِي وَاَسْوَدَاذٌ لِيُوجِهِيكَ الْمَلْعُونِ
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٢٣٠/٦)

إنّ الشعرات البيض قد حلّت في مفرقه و غلبت على السود منها لما اعتراه من الشيب و الهرم، و هذا مما يشجنه و يفرح شاتمته، فيسود شعوره بالخضاب سوادا يبيض وجهه و يشرفه و يحزن من يشتمه و يغيظه. فاللون ذو دلالة نفسية واضحة تتناسب مع الحالة النفسية للشاعر، ولكي يبرز الشاعر نضاعة اللون الأبيض و قوة تأثيره فدنه يحيطه بالعتمة و الظلمة المستمدة من الألفاظ «الخضاب» و «الاسوداد» و «الملعون» بهدف إبراز فاعلية ذاك اللون و دوره في منح لوحة بشاشته و فرحه جمالها و إشراقها و جانبها المنير الذي يتمناه الشاعر. و حين يرسم الشاعر لوحة الممدوح راصداً فيه جانب الجمال و الطهر، فإنه يلون مفاصل الصورة الاستعارية باللون الأبيض من خلال «البيضاء» و «الصباح» في قوله عن ذاك الممدوح:

يَا فِضَّةً بِيضَاءَ مَسْبُوكَةً جَادَتْ وَصَفَّتْهَا يَدُ السَّابِكِ
بِالصُّبْحِ مِنْ غُرَّتِكَ الْمُجْتَلَى وَاللَّيْلِ مِنْ طُرَّتِكَ الْحَالِكِ
(المصدر نفسه: ٣١/٥)

يخاطب الشاعر ممدوحه - في ظلّ استعارة تصريحية -، فلا يجد مستعاراً له أنسب من «فضة بيضاء مسبوكة» تعبيراً عن ضياء وجهه و اقتترانه بالبياض و

الوضوح و الاشراق، و يتجلّى الصبح في البيت الثاني إشارة إلى النقاء و البراءة و الجمال، و إمعاناً بتركيز اللون الأبيض في لوحة الممدوح. فقد جاءت هذه اللوحة لتأكيد طهر ذاك الممدوح و سمّوه الذي يتوغل في أعماقه توغل نور الصباح الباهر في الذات المرهفة للخير. إذ لا يكتفى الشاعر باللون الأبيض، بل يضيف إليه بياضاً يطلّ من الصبح المشرق و هكذا تنهل ريشة الشاعر من الصباح لونها الأبيض المشرق في قوله: «بالصبح من غرتك المجتلى» حين يرسم ابن الرومي لوحة جميلة لممدوحه قائلاً له: إنك لذو وجه أبيض كالفضة البارقة، فضة صفاها السابك في ضياء صبح جبينك السافر و في دجى ليل شعرك الحالك، إذ تكون غرة الممدوح دواة بيضاء تمنح الصبح لونها الأبيض المقترن بالإشراق و التجدد، و في البياض هدوء و سكينه و فى نظرة علماء النفس، إنّما البياض فى معناه الإيجابى مظهر للضوء، و القداسة، و العصمة (اسماعيل پور، ١٣٧٧: ٢٢). و هكذا فإنّ ابن الرومي غمس ريشته فى الطبيعة و جعل من جمالها محبرة له، و استعار ما فيها أجمل ما فيها، كى يبرز ما اعتل فى نفسه من مشاعر و أحساسيس و ما ارتسم فى خاطره من جمال و افتنان. و مما استخدم اللون الأبيض للأسنان قوله:

تَعَنَّتِ بِالمِسْوَاكِ أبيضَ صَافِيَا تَكَادُ عَذَارَى الدُّرِّ مِنْهُ تَحَدَّرُ

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ١٥/٣)

يقول ابن الرومي: إنّ لحبيبتى أسناناً تبرق من بياضها و هى تحكى درراً متسقة، هى استخدم المسواك لهذه الأقالح و لكنها لا ترفق بها و تغسلها تعنتاً. ففي هذه اللوحة لا يكتفى الشاعر بلون الأبيض الصافى، بل يضيف إليه بياضاً يطلّ من ابتسامه الحبيبة و من تألق ثناياها البراقة اللامعة التى قرنها الشاعر بالدرر، فى ظلّ استعارة تصريحية أصلية. و بذلك فقد رقد الشاعر لوحته الشعرية باللون الأبيض من خلال ثغور تلك الفتاة تارة، و من لون تلالؤ

الدرر تارة أخرى، فضلا عن انبثاق اللون الأبيض المستمد من صفة «الصافي».

٢.٦. اللون الأسود

فيما يتعلق باللون الأسود تعتبر الشخصيات التي تفضل هذا اللون غامضة و منطوية على نفسها، و تعيش في عالم مغلق و مظلم، و هي شخصيات متكلفة للغاية (لوشر، ١٣٧١: ٣٦-٤٥).

إنما الأسود هو لون الظلمة، و الغم، و الوحشة، و القلق، و الموت (لوشر، ١٣٧١: ١٣٨). هو عند المسلمين لون الكفر و الضلال و سوء الحال و المآل في الآخرة. ذكر السواد في كتاب الله العزيز سبع مرات، و دلالته على العمل السيء و انكار الإيمان، قال تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) (الزمر ٣٩: ٦٠). و يعتقد علماء علم النفس أن استخدام الأسود هو رمز الاحتجاج، الاحتجاج على الوضع الموجود، الاحتجاج على الأمور كلها (لوشر، ١٣٧١: ٩٧). و الأسود في بعض الأحيان يستخدم رمزاً للعدم و هو لون المأتم أيضاً، و هو لون «يدلّ على الغوص في الأعماق حيث الظلمة و العتمة، و قد استشفت هذه الدلالة من حدة الدال و اتّسع الواو» (أبوصفية، ١٩٩٠: ١١٤)، و هو لون يثير الموت و الشر و الحزن و التشاؤم و الخوف من المجهول لإرتباطه بأشياء منفرة في الطبيعة دون سائر الألوان، فهو مرتبط بالليل و الظلام، و الزفت و السخام. و لعلّ هذا الارتباط و جلبيه لمشاعر الخوف هو السبب المباشر للنفور منه، فالظلام يحدّ الرؤية و يحجب الحقيقة.

٢.٦.١. الشاعر و مظاهر السواد

يستخدم هذا اللون في الأدب للظلام، و الصمت، و اليأس، و الخيبة، و الفناء، و

رمز الحزن، و الهم، و الموت، و الإخفاق، و اللون الذي يمثل الظلم، و الضلالة، و الغضب، و الإثم، و الكفر (قاسمي و ممتحن، ١٣٩٠: ٩٠)، و لعل ارتباطه بالليل و الظلام، و جلبيه لمشاعر الخوف و الجبن هو السبب المباشر للنفور منه. استعمال السواد في أشعار ابن الرومي كثير و هو يستخدم هذا اللون لسواد الشعر و الليالي و الكفر كثيراً. إنه يأتي بالأسود لوصف الشعر كثيراً بالغة و هو يريد به شيبين، أحدهما سواد الشعر خلقة، و ثانيهما تسويده بالخضاب. مما أتى به للمعنى الأول قوله:

لِلسُّودِ فِي السُّودِ آثَارٌ تَرَكْنَ بِهَا لَمَعاً مِنَ الْبَيْضِ تُتَبَى أَعْيُنَ الْبَيْضِ
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٤٢/٤)

الشاعر يقرن سواد الشعر بالليل دلالة على شدة السواد مع الغزارة و يقول: مضت عليه أيام و ليال و شيبته دواهي الدهر و مصائبه فانبثت الشعرات البيض تحلّ مفرقه و تتكاثر، فأعرضت عنه الغواني و نأين منه، يريد الشاعر بالسود الأول البالي و بالثاني شعره، و يقصد من البيض الأول ابيضاض شعره و من الثاني الحسان الغواني. نلاحظ هنا أن الشاعر قلب اللون إلى ضده، فالأسود ذو دلالة أصلية قاتمة، و لكنّها تصير بياضاً، فقلب اللون إلى ضده يأتي لمسوغ جمالي، وكي يظهر الغرض أكثر مما يعطى اللون الحقيقي، لأن الضدّ قد يظهر حسنه الضدّ. و مما أتى به للمعنى الثاني قوله:

قُلْ لِلْمُسَوِّدِ حِينَ شَيْبٍ: هَكَذَا غَشُّ الْغَوَانِي فِي الْهَوَىٰ إِيَّاكَ
كَذِبَ الْغَوَانِي فِي سَوَادِ عِذَارِهِ فَكَذَّبَتْهُ فِي وُدِّهِنَّ كَذَاكَ
(المصدر نفسه: ٣٥/٥)

يقصد الشاعر من المسود نفسه، إنه يعاني من الشيب الذي يزجر عنه الجميلات عناء شديداً و يقول: إن الحسان يغششن في هواك، يظهرن أنّهن محبات لك و لكنهن يبحن بغير ما يضمنن، فلا تحسبن أنك كذبتهن و أخفيت

عنهن مشبيك بالتسويد إذ كذبتك الغواني في ودك و أنت لم تتنبّه لذلك و صدقتهن. يهبّ اللون الأسود ظلاله المعتمة و دلالاته المتصلة بالفقدان و الحزن في هذه الصورة الشعرية، فيغمر بعتمته و قتامته كلّ اللوحة حين يلبسها رداء أسود، تعبيراً عن إحاطة ذلك اللون للوحة كلّها باليأس و الشجن. و يحضر اللون الأبيض في لفظة «الشيبي» في بناء هذه الصورة كي يظهر فاعلية اللون الأسود، إذ يبدو اللون الأسود أكثر حلكة و كثافة و أشدّ وقعاً في إشاعة أجواء الحزن. دلالة اللون الأسود هنا دلالة روحية و لفظة «الكذب» زاد في توسيع هذه الدلالة. و قد يردّ اللون الأسود غير الصريح مكتفياً في ديوان الشاعر حيث يكثر ابن الرومي من التشبث بالأسود لوصف الليالي، نحو:

وَلَا أَفْضَتِ بِحَرْفٍ فِي مَلَامِكُمْ يَا آلَ وَهَبٍ طَوَالَ الْبَيْضِ وَالسُّودِ؟
(المصدر نفسه: ١٣٠/٢)

حاول الشاعر في هذا البيت التوفيق و المصالحة بين لونين متعارضين و هما الأسود و الأبيض حيث وظفهما لغاية واحدة، واختفى الفرق بينهما تدريجياً، بحيث أصبح اللونان في صبغة واحدة يجدان الإحساس و الشعور نفسيهما حيث عبّر عن مرور الزمن بالببيض و السود، فالبيض هنا دلالة عن النهار و السود يدلّ على الليالي. كأنى بالشاعر أردف اللونين المتناقضين لكي يثير نفسية القارئ لذات المصير المشترك؛ سواء كان بالأبيض أو الأسود. و

استخدم ابن الرومي الأسود رمزاً للجحود و المارقين عن الدين غير مرة:

فَقَا اللَّهُ عَيْنُونَا نَحْوَهُمْ خُضْرًا وَزُرْقَا
مِنْ أَنْسَابٍ أَصْبَحُوا فِي دِينِهِمْ سُودًا وَبُلْقَا

(المصدر نفسه: ٧٤/٤)

و «البلق: سوادٌ و بياضٌ في اللون» (القاموس المحيط، مادة بلق). يعكس ابن الرومي همومه و كراهته من اللون الأسود بإدخال هذا اللون في نسيج

صوره الشعرية. ففي هذه اللوحة يلقي اللون الأسود الصريح بظلاله المعتمة على الدين و هو يوحى بالمرارة و الأسى لشاعر يكره حاسديهم المارقين. و أحياناً يكون الأسود دلالة على الفقر و الخوف، يقول:

حَمَانَا وَأَرَعَانَا حِمَى كُلِّ ثَرَوَةٍ وَأَبَدَلْنَا بِيضَ اللَّيَالِي بِسُودِهَا
(المصدر نفسه: ٥٩٥/٢)

و قد يكون اللون الأسود إطاراً حقيقياً للوحة الشعرية في أشعار ابن الرومي حيث يورده صفة للوجه:

يَفْتَرِ ذَاكَ السَّوَادُ عَن يَقَقِّ مِّنْ ثَغْرِهَا كَالْأَلِيِّ النَّسِقِ
(المصدر نفسه: ١١٧/٤)

يصوغ الشاعر لوحة الأمة السوداء الوجه ناهلاً من ينبوع اللون و معينها الثر ليأتى دور اللون الأسود في وضع وجوه الأمة السوداء.

٣.٦. اللون الأحمر

تمكن علماء نفس مختصون من تحديد العلاقة بين اللون المفضل لدى الشخص الذي يعكس شخصيته و يفصح عن ميوله و صفاته و مزاجه و الروح المسيطرة عليه و بين حالته الصحية و أوضح هؤلاء أن الألوان المحيطة بالإنسان تؤثر بصورة مباشرة على نفسيته. وجد الباحثون أن اللون الأحمر هو لون الطاقة و الحيوية إذ يتمتع لأشخاص اللذين يفضلونه بالنشاط و الحيوية و الديناميكية و الشجاعة و الحساسية الشديدة و هم يهتمون بالجانب الحسى أكثر من اهتمامهم بالجانب المعنوى (لوشر، ١٣٧١: ٩٦ - ٧٩). فالأحمر يمثل عادة العاطفة و الانفعال و النار و الغضب و إذا كان الأحمر ملتهباً فإنه يعنى الحرب (ايتن، ١٣٦٧: ٢٥٦). أمّ الأحمر «فهو لون فيه التوهج و الحرارة المستمدة من الحاء» (أبوصفيه، ١٩٩٠: ١٤٣). هذا اللون من أوضح الألوان لارتباطه بالدم، و هو مظهر للجمال و النقاء في الأدب العربي؛ بعد أن «كان رمزاً لأسوأ الأشياء في

الجاهلية» (شفيعى كدكنى، ١٣٨٦: ١٠٧). و لقد ورد اللون الأحمر في القرآن الكريم مرة واحدة دل فيها على مشهد حسن، يقول تعالى: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) (الفاطر: ٢٧). أمّا إحياءات هذا اللون موجود فى الذكر الحكيم، فقد وصف الله تعالى قاصرات الطرف بقوله: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن ٥٥: ٥٨). أى حمرة الوجنة و بياض البشرة و صفائهما (الطبرى، ١٤٢١ق: ٨٨/٢٧)، فوجه الشبه هو الحمرة المحمودة أى حمرة الخدّ.

٦. ٣. ١. الشاعر و مظاهر الحمرة

و كما أن اللون الأخضر يردّ صريحاً و غير صريح، فإنّ اللون الأحمر يتجلى كذلك بالأسلوبين كليهما، و هو يستثير إحساسات متباينة فى ذات الشاعر و حسب السياق الشعري. يستخدم ابن الرومي إحياءات اللون الأحمر الصريح ليلون به صورته الشعرية فهى الخدود و الأوردة، و الخمر و غير ذلك تتلون جميعاً باللون الأحمر فى نسيج اللوحات الفنية. يقول فى حمرة خدى حبيبته:

مَا حُمْرَةٌ فِيكُمَا: أَمِنْ خَجَلٍ أَمْ صِبْغَةَ اللَّهِ أَمْ دَمُ الْمُهْجِ؟
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٥/٢)

يستغرب ابن الرومي حمرة خدى حبيبته لما فيها من حسن و روعة، فيخاطبهما سائلاً: ما لكما تحمران، أأنتما خجولان أو جبلكما الله على حمرة أو هذا الاحمرار هو دماء عشاقكما الذين ماتوا فيكما؟! و لكى يبرز الشاعر حمرة و جنتى الحبيبة و جمالها الأخاذ يتجاهل ذلك و يستفهم عنه كأنه غير عارف به. من الطبيعي أن العاشق حينما رأى معشوقه جعل قلبه يخفق، و المعشوق حينما رأى محبّه احمرّت و جنتاه من الخجل، فيتزاحم اللون الأحمر فى أرجاء هذه اللوحة من خلال (حمرة الخجول) و (لون دم المهج) باثماً إحياءاته الدالة على الجمال و النقاء. لقد وهب اللون الأحمر للمهج الحركية و الحيوية اللتين يعكسهما هذا اللون خاصة؛ و قد أشرنا أن الأحمر هو لون

الوجود و الحياة، و مظهر للحرية و العشق (على اكبر زاده، ١٣٧٨: ٤٤)، و من جانب آخر تستحضر صورة الخدّ المغطى بالدم القانى فى ذهن المخاطب صورة الإنسان الملتف بثوبه الأحمر؛ و بذلك يؤكد جمال الصورة الشعرية بصورة غير الصريح. ثمّ فى لوحة أخرى ينتقل الشاعر إلى وصف عين حبيبته بأنّها حمراء: حُمْرُهَا مِنْ دِمَاءٍ مَنْ قَتَلْتُ وَالِدَمُّ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبٌ (ابن الرومي، ١٩٩٨: ٢٠٦/١)

يصف الشاعر عيون الحبيبة الحمراء بأنّها حمراء من كثرة قتلاها، فلأجل هذا، عينها صبغت بلون الأحمر من دم محبيها. فقد نوى الشاعر بيان جمال حمرة عين الحبيب و شدة أثر نظرتها فى قلوب المشاهدين بأحسن صورة، فشبه ذلك برمح يصرع الأعداء واحداً تلو الآخر. إنه يصور الحمرة الوجودية فى عين المحبوب كالحمرة الباقية من الدّم على حديدة الرّمح، صورة تبقى أثراً بالغاً على القارئ بسوقه إلى أعماق الخيال. فقد كرر الشاعر اللون الأحمر، مرة للعيون مرة أخرى للرمح، و بهذا التكرار أعطى دلالات بارزة للون الأحمر و هى القوة و الحدة من خلال الربط بين حدة العين و حمرة الرّمح. وهنا جاءت كلمة «الدّم» بداية الشطرة الثانية لتعبر عن شدة الحمرة، ممّا يشير إلى كثرة الدّماء التى سالت حتى صبغت عين الحبيبة باللون الأحمر، و بهذا فقد دلّ هذا اللون على القوة و الفخر و العزة. و الصورة الشعرية هنا لا تقف قبالة الألفاظ لمجرد معناها بل تتعدها لتستقطب خيال المتلقى و تأتى به إلى ساحة المعركة حيث سفك الدماء و سيلان اللون الأحمر، و علاقة عين الحبيبة بالرمح صور الفخر و العزة و هو رمح قاطع حادّ ملطخ بدماء الأعداء حتى أصبح ذا لون أحمر. و فى هذه الصورة، جاء اللون الأحمر فى العيون ليزيد المحبوبة جمالاً و هذه إشارة إلى حدة البصر من جهة أخرى. و مما قال فى حمرة الأزهار قوله:

كَأَنَّهَا فِي احْمِرَارِهَا شَمْسٌ يُعَشَّى لَهَا مَنْ دَنَا فَأَبْصَرَهَا
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ١٩١/٣)

قد طلع الربيع فأخصبت الأرض و اخضرت الأشجار و كثرت الأزهار و الورود الحمر في الروض، و هي من حمرتها تشاكل شمساً لما فيها من ضياء و تألق، فمن دنا لها و نظر إليها يفقد بصره لشدة احمرارها. يقترن لون الورود الحمر في مخيلة الشاعر بلون الشمس حين يصوغ استعارة تصريحية أصلية تفصح عن إحساساته إزاء جمال تلك الأزهار و الورود مستثمراً إichاءات الشمس المنيرة و دلالاتها المنبئة بجمال الشمس و بذلك يزخر أجواؤه بالبهجة المستمدة من حضور الشمس بلونها البهيج. و يقول و اصفاً حسناء:

وَضَعَتْ كَقُضْبَانَ اللَّجِيِّ —————
نِ وَصَلْنَ بِالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرُ
أَطْرَافَ كَفِّ فَوْقَ خَدِّ —————
د مِنْهُ مَاءُ الْحُسْنِ يَقْطُرُ
(المصدر نفسه: ١٨٩/٣)

وضعت الحسناء كفها على خدها، كفاً تضاهي أنامله قضبان الفضة في بياضها، و تحكى أظفارها المصبوغة بالحمرة يواقيت حمراً، هي حسناء يقطر ماء الحسن من و جناتها. يدخل اللون الأحمر الضمني (الياقوت) في بناء هذه اللوحة الفنية، إذ يكون لوناً لأظفار الحبيبة المصبوغة بالحمرة إichاءاً بجمال المحبوب، و يقول علماء النفس: إنَّ اللون الأحمر هو لون الحب (على اكبر زاده، ١٣٧٨: ٦٨). و يأتي صفة «الأحمر» للياقوت كي يركز على حمرتها من خلال توكيده. و يقول في وصف الطب و العلاج:

سَفَكَتْ بِهِ كَفُّ الطَّيِّبِ ضُبَابَةً —————
كَمْ دُونَهَا مِنْ وَرْدٍ مَوْتٍ أَحْمَرِ
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٢٠٤/٣)

يقول الشاعر و اصفاً مفتصداً و هو الجراح الذي يشقّ العرق ليخرج منه الدم على سبيل المداواة و التطيب، لولا الاستطاب لكان دون استنزاف الدم موت

أحمر لأن البطل المفتصد يمنع دمه السيف. و الأحمر هنا صفة للموت. و«ارتباط هذا اللون بالدم، جعله رمزاً لناحيتين متناقضتين، و هما "الحياة و الموت"، ذلك أن النزف الشديد للدم يؤدي للموت، أما جريانه في عروق الإنسان ففيه حفاظ على الحياة و استمرارية لها» (عمر، ١٩٨٢: ١٦٤). فقد قيل «موت أحمر» للدلالة على القتل لما فيه من حمرة الدم أو لشدته» (الثعالبي، ٢٠٠٠: ١٢٣)، و يقال موت أحمر أى موت شديد. فجاءت عبارة «الموت الأحمر» لتدل على القسوة و الشدة للموت، فهو أمر على الإنسان من الموت في ساحة المعركة، و لعله جعل من الموت أحمر لأن سفك الدم سلب لحياة الإنسان، و ربّما يبدو الشاعر متحسراً على هذه الدماء التي تسيل بسبب الاستنزاف، و لذلك دلّ بأن هذا الموت يختلف عن غيره بأن جعله أحمر.

٤.٦. اللون الأخضر

يرمز اللون الأخضر لبساطة الشخصيات متسامحة متفاهمة و حليلة يمكن الوثوق بها لبساطتها و وضوحها و هو لون الفنانين على اختلافهم، و يميز أصحاب النفوس المرفهة الحس المحبة للحركة و النشاط، و تعتبر الدقة في العمل أبرز خصالهم (لوشر، ١٣٧١: ٤٣-٤٧). إنّما الأخضر رمز الخير و الأمل و المستقبل و البعث من جديد و التفاؤل و تجديد الآمال العظيمة للمستقبل و إستعادة القوى و الطاقة (لوشر، ١٣٧١: ١٦٥). يرمز اللون الأخضر إلى النعمة و الرضا. و هو لون «يدلّ على الخصب و الحياة، لما فط الخاء من طراوة و امتلاء بالماء، و يساعد تكرار الراء على جريان الماء في العروق، مما يزيد في طراوته و نداوته» (أبوصفيه، ١٩٩٠: ١٣٧). ورد هذا اللون تسع مرات في الذكر الحكيم، كقوله تعالى في وصف أهل النعيم: (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) (الكهف ١٩: ٣١). الأخضر رمز الخير و

الأمل و المستقبل و البعث من جديد و التفاؤل و تجديد الآمال العظيمة للمستقبل و استعادة القوى و الطاقة. فهو لون مستقرّ ثابت لارتباطه بالنبات و الخصب.

٦. ٤. ١. الشاعر و مظاهر الخضرة

يأتي اللون الأخضر بالمرتبة الثانية، إذ يلون به ابن الرومي صورته الشعرية إحساساً منه بدور اللون الأخضر الموحى بالتجدد و النماء و هو لون رعوى يدلّ على الحياة و الحركة. أسدل الأخضر إطلاقات متنوعة في شعر ابن الرومي، و السياق الأدبي يوجه تلك المعاني المتنوعة و جلّ ما يستعمله للرياض و الأشجار و النباتات. فإنّ الشاعر يتفنن في إيراد هذا اللون صريحاً مرة، و ضمناً أخرى. فأما الأخضر الصريح، فإنه يردّ صفة للأوراق و الغصون المحذوفة حين يقول:

وَرَقٌ تَغْنَى عَلَى خُضْرٍ مُهْدَلَّةٍ تَسْمُو بِهَا، وَتَسْمُ الْأَرْضَ أحياناً
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٢٠٩/٦)

يمشي الشاعر في الروض و يرى الغصون الخضرة و الغضة، و طرب الطيور التي انبرت تصرصر و تغرد على الأشجار، تجلس على أغصان قد تدلت و استرسلت لما فيها من غضاضة و نضارة، تصفق الرياح هذه الأغصان التي أثقلتها الطيور عليها، فأخذت تنوس، تعلو تارة و تسفل و تدنو الأرض أخرى، كأنها تشم الأرض لطيب نباتاتها و الورود. إنّ المنظر الذي يصفه الشاعر ذو جمال و روعة باهرة و تصويره لذاك لا يقلّ منه حسناً و بهجة. نحن نرى فاعلية اللون الأخضر في هذه اللوحة الجميلة إذ تنطبع هذه الصورة بطابع الحركة و النمو و الخصب من الطبيعة المتجددة للروض في الربيع، لأنّه يرمز هذا اللون إلى الخصب و البركة و الربيع، و يعكس الراحة و الاسترخاء، «وهو

لون يبعث البهجة و الفرح، و يخلو من كل الصفات السلبية» (نيك بخت،
١٣٧٤: ٣). و قال في وصف الثياب:

نَشَرَ آذَارُ فِي الثَّرَى حُلَاً قَد كَانَ كَانُونَ قَبْلَ طَوَاهَا
كَسَا عُرَاءَ الرَّبَا طَيَّالِسَةً خُضْرًا، وَبِالْعَبْقَرَى رِدَاهَا

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ١١٢/١)

قد ذكر الشاعر شهرين من الشهور. كانون نيابةً عن الشتاء و آذارَ إشارةً الى الربيع و أشارَ الى تغير الأرض في الشهرين لما يعترها من البرد و الاعتدال. شتاءً و برودةً و مَطْرٌ و ثَلْجٌ، ربيعٌ و اعتدالٌ و اخضرارٌ و تلونُ الورود. تجوُّدُ السماء الأرض في الشتاء بما تناولها من أمطارها الغزيرة و ثلوجها الشاملة، فتستعد للإنبات و يحيين آذار، و تُخرج ورودها و الرياحين و تجعل من النباتات و الأوراق ثياباً خضراً للربا و تهبها ملابس فاخرة. قد شبه الشاعر الأوراقَ الأخضر و النباتاتِ المخضرة بطيالسةً على أبدان الربا. اللون الأخضر هنا جاء في ظاهر معناه دالا على حقيقة اللون نفسه. و كلمة «العبرى» أيضاً تعنى تلون الورود المنتشرة على خضرة النباتات. و أيضاً استخدم الأخضر في وصف العيون:

فَقَا اللَّهُ عُيُونَا نَحْوَهُمْ خُضْرًا وَزُرْقَا

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٧٦/٤)

ابن الرومي في هذ البيت يدعو على مبغضيههم و حاسديههم، فكأن الخضر و الزرق رمز إلى الحسد و الحساد في صورة الشاعر، و هذا خلاف لما أشرنا على لسان علماء علم النفس بأن الأخضر لون يبعث البهجة و الفرح، و يخلو من كل الصفات السلبية. و يرتبط اللون الأخضر غير الصريح بجود الممدوح و كرمه:

فَتَعَالَتْ فَوَارَةٌ تَحْسَدُ الْخَضْرُ رَاءُ إِغْدَاقِ مَائِهَا الْغَبْرَاءِ

(المصدر نفسه: ١/٦٣)

يمدح الشاعر ممدوحه قاتلاً: إنه معطاء يعمّ نائله الناس و غير الناس، هو فوارة متدفقة تبلل الأرض بكثرة تستغريها السماء و تحسدها. و تتجلى قدرة الشاعر على استخدام اللون الأخضر بإبرازه متضمناً جود الممدوح و كرمه فى هذه الصورة الشعرية الجميلة، و بذلك ينفذ ابن الرومي إلى صميم إحساسات القارئ و ينقل إليها صورة ممدوح مقترن بالسخاء و الكرم، و هذا يعنى أنّ الجود كان متعالياً بمعنى أنّه عامّ و كثير، فضلاً عن أنّ هذا الجود كان متجدداً أخضر. و قد أفصح الفعلان المستعاران التبعيتان^٢ «تعاليت» و «تحسد» عن الانتشاء و الغبطة التين عمّتا أرجاء هذه اللوحة.

و من استخدام اللون الأخضر غير الصريح:

تُنْقَشُ كَفَّ الغُصْنِ فِي الرُّوضِ عِنْدَمَا تَجَلَّتْ عَرُوسُ الرَّاحِ فِي الحُلَلِ الخُضْرِ
(المصدر نفسه: ١٩٥/٣)

يقول الشاعر و هو يصف روضة فيها مجلس الشراب: و جعلت القطرات الندية تنقش كفوف الأغصان فى الروضة التى ارتدت حلتها الخضراء. فالمشهد فى هذا البيت يوحى بالهدوء و الاستقرار و الحياة الهانئة مستوحاة من اللون الأخضر، فكان اللون محوراً لهذه اللوحة الشعرية. فلهذا نراه جسّد اللون الأخضر مع امتداداته ليستوعب الطبيعة بكلّ ما فيها من الخضروات و الجمال و النضارة و الطراوة. و فى صورة أخرى، فالخضرة دلالة على الشباب و صغر السن:

وَأَبْصَرْتُ فِي خَدَيْهِ مَاءً وَخُضْرَةً فَمَا أَمْلَحَ المَرَعَى، وَمَا أَعَذَبَ الوَرْدَا
(المصدر نفسه: ٣٨٦/٣)

و يلاحظ أنّ ابن الرومي أضاف لمدلول اللون الأخضر دلالات جديدة، و دلالة الأخضر فى الشعر القديم لا تكاد تخرج هذا اللون عن الدلالة القصديّة التى تتم عن: طيب العيش، و بلوغ سن الشباب و غيرهم، أمّا عند ابن الرومي، فهى دلالات جمالية عامة، حملت فى طياتها أحياناً دلالات بديعية لخدمة هذا اللون.

٥. ٦. اللون الأصفر

لاحظ العلماء أن الأشخاص الذين يفضلون اللون الأصفر و هو لون الحكمة مثاليون و متفائلون و سُعداء و حكماء حيث تتناغم صفاتهم مع صفات هذا اللون الذي يعتبر رمزاً للضوء و الثراء، و يمكنه شحن صاحبه بالحيوية و القدرة على الإبداع (لوشر، ١٣٧١: ٧٥-٦٢).

يعبر الأصفر عن إرهاصات الموت و الفناء (آيت الهى، ١٣٨٤: ١١٣). ورد اللون الأصفر خمسة مرات في القرآن الكريم، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة: (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْرَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا) (الزمر ٣٩: ٢١). يقول تعالى: ثم يبسس ذلك الزرع من بعد خضرته، يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخضر: هاجت الأرض. يعنى فترى ذلك الزرع من بعد خضرته و رطوبته قد يبس فصار أصفر.

٥. ٦. ١. الشاعر و مظاهر الصفرة

الصفرة يرمز إلى النور و الإشراق (لوشر، ١٣٧١: ٩٨) و هى من الألوان التى نلتقى بها كثيراً فى أشعار ابن الرومي و لا غرو من ذلك إذ هى من الألوان التى تكونت منها الطبيعة و ابن الرومي هو شاعر الطبيعة. فقد يكون اللون الأصفر مرجعة الضياع، أو الخوف أو النفاق أو الجفاف. إنه يستخدم أكثر ما يستخدم هذا اللون للورود و الخمر و يأتى به أحياناً للشمس و للثياب. مما أتى به للورود قوله:

وَعَلَى اسْتِقْبَالِ وَجْهِهِ مِنْ رَبِيعِ ذِي اخْضِرَارِ
مُتَوَشِّئًا بِأَصْفِرَارِ وَبَيَّاضِ وَأَحْمِرَارِ

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٥٣/٣)

انطلق الشاعر بخياله الحزين يصور روضاً فيدخل الشاعر فيه و يطربه تغريد

البلابل و صرصرة العصافير و تريعه الأشجار و النباتات الملتفة، فبدأ يصف الأشجار المخضرة و الأوراد و الزهور المنقشة. أقبل الربيع الذى تخضر فيه الرياض و الربا و تتزين بثياب حمر و بيض و صفر من الأزهار. و يقول فى الخمر: أَلَا نَسِيًّا نَفْسِي حَدِيثَ الْبَلَابِلِ بِمَشْمُولَةٍ صَفْرَاءَ مِنْ خَمْرِ بَابِلِ (المصدر نفسه: ١٩٧/٥)

تعاطى كثير من الشعراء وصف الخمر و أكثر ابن الرومي من النظم فى الخمريات، وصفها و وصف إناءها و دنائها. و يصف الشاعر هنا صفرة الراح و ضياءها و صفاً رائعاً. يتأمل ابن الرومي تشعشع الخمر فلا يجد لونها أكثر مناسبة للوحته من اللون الأصفر، فإنه يطلب من نديميه أن يسقيه خمرأ صفراء هبت عليها ريح الشمال و بردتها. و فى لوحة أخرى فصفاء كناية عن الخمر الصافية الأصلية:

تِلْكَ أَوْ صَفْرَاءَ صَافٍ لَوْنِهَا عُنْتَقَتْ مِنْ مَهْدِ كِسْرَى بْنِ قِبَادِ (المصدر نفسه: ٤١٧/٢)

يقول فى قصيدة يمدح رذاذ المُغْنَى: اسقيني تلك الشمول الحمراء أو أخرى صفراء (المراد الخمر) لونها رائق معتقة من عهد كسرى ابن قباد. و يربط الشاعر بين الخمر و النشوة التى يجدها فى معاقرتها حتى غدت صفراء اللون، لأنه «ارتبط لون الخمر الأصفر المائل للحمرة فى المجتمع بالسعادة و النشوة» (محمد محمود شحادة، ٢٠١٣: ٩٩).

و فى وصف روض أثناء غروب الشمس: وَقَدْ ضُرِبَتْ فِي خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرَةٌ مِنْ الشَّمْسِ فَأَخْضَرَ أَخْضِرَارًا مُشْعَعًا (ابن الرومي، ١٩٩٨: ١١٦/٤)

الشاعر يشير إلى امتزاج اللون الأصفر للشمس بالألوان الرياحين الزاهى قائلا: إن السماء مشمسة و الرياض اخضرت بمجىء الربيع، فأضحت الشمس

المشرقة الأشجار و النباتات و أَلقت عليها الضوء و زادت خضرتها جمالا و روعة. ففي هذه اللوحة يقترن جمال الرياحين و حضورها المشرق في الروض بالشمس تعبيراً عن دلالات شتّى مستوحاة من مزيج الإيحاءات المستمدة من الضياء و الوضوح و الاشراق.

و قوله في رثاء ولده الأوسط:

أَلحَّ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِيِّ عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ

(المصدر نفسه: ١٥٦/٣)

الجادىّ يعنى الزعفران و هو نبات له زهر يميل للون الأصفر. يقول الشاعر: اشتدّ عليه مرض النزف بحيث غيّر لونه من لون الزعفران إلى حمرة الورد. و لقد صحّ في الحقيقة عكس ذلك، يعنى تغيّر لونه من الحمرة إلى الصفرة. فأصبح الولد ينزف مما جعل لون وجهه يتبدل إلى اللون الأصفر بعد أن كان وجهه أحمر كالورد. فنحن نرى في هذه الصورة بأنّه لم يتطرق ابن الرومي لوصف صراع ابنه مع الموت، بل وصف جمال ابنه قبل الموت و ما آل إليه ذلك الجمال. لقد ألحّ عليه النزف و استمر يفقد دمه حتى ضعف و ذبل و تحول لونه الزاهى الوردى إلى صفرة كامدة تشبه صفرة الزعفران. صور الأب موت ابنه، بأن المرض قد اشتدّ عليه، فأخذ دمه ينزف باستمرار، حتى تحوّل لون وجهه من الحمرة إلى الصفرة. ففي قوله «أحاله إلى صُفْرَةِ الْجَادِيِّ عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ» تشبيهان لابن قبل مرضه بالورد في نضارته و حمرته، و بعد المرض بالجادى في ذبوله و صفرته، و سرّ جمالهما التوضيح و يوحيان بقسوة و فيها استخدام موفق للألوان من قبل الشاعر. فتوظيف اللونين الأحمر و الأصفر، هو توظيف فنيّ دقيق، فالأحمر يدلّ على حالة الطفل و هو على قيد الحياة أما الأصفر فيدلّ على الطفل في فترة الاحتضار. فالشاعر ظلّ ابنه ينزف حتى تحول لونه الورد بدليل الحيوية و النشاط إلى لون أصفر خال من النضارة و فوران الحياة،

و هكذا صور الموت عندما يأتي يتغير لون الإنسان.

٦.٦. اللون الأزرق

أشار الخبراء إلى أن اللون الأزرق هو لون بارد و يتمتع الأشخاص الذين يفضلون هذا اللون بشخصية جادة حساسة محافظة تراعى ضميرها في المقام الأول خصوصا و أن هذا اللون يعتبر رمزا للمعاني المطلقة، و لذلك فهو يشير إلى الحب للحياة (لوشر، ١٣٧١: ٨٢ - ٧٠). يقترب اللون الأزرق في معانيه من اللون الأسود في الثقافة العربية ذلك أنه لون كريمة، لأنه لون الموت و المرض و الكآبة و الحزن. و قد قال المفسرون في تفسير الآية الكريمة: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) (طه ٢٠: ١٠٢). ظاهر الكلام أن الزرقة لون أجسادهم، وإن المراد لون عيونهم؛ لأن زرقة العين مكروهة عند العرب، أي: عمياً عيونهم لا نور لها. يقول الطبرسي: «إنه يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً يحشرون زرق العيون، و معنى الزرقة الخضرة في سواد العيون كعين السنور، و المعنى في هذا تشويه الخلق. و قيل زرقاً عمياً ترى زرقاً و هي عمى و قيل عطاشاً في مظهر عيونهم كالزرقة» (طبرسي، ١٣٨٤: ٨٣). و كان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي و كل أعجمي حتى «قيل عن شديد العداوة: إنه عدو أزرق» (الأندلسي، ١٩٩٥: ٥٦). يعتبر هذا اللون من جانب آخر، لون السكينة و الهدوء و الصداقة و التفكير؛ اللون الذي يخفف من حدة ثورة الغضب و يهدئ النفس لأنه يرتبط بالماء و السماء و يرمز إلى الصدق و الخلود و الإخلاص. قيل إن الأزرق الغامق يدل على التمييز و الشعور بالمسؤولية و الإيمان، و اللون الأزرق الفاتح يعكس النقة و البراءة و الشباب. فهذا اللون مقدس عند اليهود، أما لدى الصينيين فاللون الأزرق رمز للموت (أحمد مختار، ٢٠٠٠: ١٦٤). إذن، فللأزرق دلالات واسعة و مختلفة،

و ربما يعود ذلك لأسباب منها تفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم، فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود؛ لذا فهو يثير النفور و الحقد و الكراهية، و قد ارتبط بالغول و الجن و القوى السلبية في الأرض، بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء و السماء، فهو مناسب للهدوء و البرودة، و بقيت تدرجات هذا اللون بين هذين الحدين (رياض، ١٩٨٣: ٢٤١).

٤.٦.١. الشاعر و مظاهر الزرقة

يستعمل ابن الرومي اللون الأزرق أحياناً للعبون و هو يذم:

إِذَا نَظَرْتُ زُرْقُ الرَّمَّاحِ إِلَى الكُلَى كَمَا نَظَرْتُ زُرْقُ العُيُونِ الشَّوَاحِصِ
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ١١/٤)

«زرقة الرّماح» في الشطر الأوّل من اللوحة، يوحي بالعنف و القسوة في مجال الصراع حيث النصال و الأسنّة بزرققتها المخيفة، و«وتسمى الرّماح و الأسنّة زُرْقًا للونها» (حمدان، ٢٠٠٨: ٥٤)، و«المزراق من الرّماح رُمحٌ قصير، و هو أخف من العنزة، و قد زَرَقَهُ المِزْرَاقُ زُرْقًا إِذَا طَعَنَهُ أَوْ رَمَاهُ بِهِ» (لسان العرب، مادة زرق). و لقد شبّه الشاعر مشهد نظر الرّماح الزرقاء إلى الكلى بصورة «زرقة العيون» إشارة إلى الحقد و الغيظ، لأنّ زرقة العين - كما سبق لنا القول - مكروهة عند العرب. و بذلك يطغى اللون الأزرق على اللوحة متسقاً مع ما يشيعه زرق الرماح من إحياءات الموت و الأفول، و زرق العيون فهو يوحي بالحقد. و نحو قوله و قد رمز بالأزرق للحقد و الغيظ:

تَظَلُّ إِذَا نَامَتْ عُقُولُ ذَوَى العَمَى وَإِنْ حَدَّدُوا زُرْقًا إِلَيْكَ جَوَاحِظًا
(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٤٤٢/٤)

فالجواحظ من جحظت العين: إذا عَظُمَتْ مُقَلَّتْهَا وَبَرَزَتْ (القاموس المحيط، مادة جحظ). يقول الشاعر في ممدوحه و هو يهنئه بشهر رمضان المعظم: إن

أغفلت عقول الجاهلين أو نظروا إليك نظرات الحقد و الغيظ تتغاضى عن غبايهم و حقدهم، كالنائم و ما أنت بنائم ثم تردعهم بكل بصيرة. فالأزرق فى هذه اللوحة إشارة إلى حقدهم و غيظهم، و هو يحمل دلالة سلبية أيضاً. فقد وصف الشاعر عيون مهجوه باللون الأزرق تقبيحاً له، و اشمئزاً منه.

و أحياناً أخرى يستخدم الشاعر اللون الأزرق صفة للعيون فى الوصف و

المدح:

وَلَكِنَّكُمْ زُرُقٌ يَزِينُ وُجُوهَكُمْ بَنَى الرَّوْمِ أَلْوَانَ مِنَ الرَّوْمِ نَعَجِ
(المصدر نفسه: ١٣٤/٢)

يستخدم ابن الرومي اللون الأزرق منسوباً إلى الروم فيمثل الجمال و العيون الزرقاء، و يصف جمال عيني الممدوحين الزرقاوين. لقد منح اللون الأزرق دلالاته المتنوعة المرتبطة بالسمو و الإمتداد غير المتناهي لعيني هولاء الممدوحين. و أيضاً نحو قوله:

وَهُوَ يَشْفِي الصُّدُورَ مِنْ جَنْفِ الْحَقِّ سَدِ وَيُغْضِي مِنْ مُقَلَّةِ زَرْقَاءِ
(المصدر نفسه: ٥٩/١)

الجَنَفُ هو الميل، و المُقَلَّةُ هو العين كلها. يقول الشاعر و هو يمدح الممدوح: إن أحكامه تطمئن النفوس و سكوته يشفى غليل الصدور. فالزرقاء كناية حدة النظر و قوته. فالشاعر لا يترك فرصة سانحة للتعبير عن إعجابه بما فعلت به الأشواق تجاه الممدوح، ثم ينتخب من ألوان «العيون» ما كان أكثر جاذبية، و أكثر تأثيراً، لذا استخدم لوناً صارخاً و هو اللون الأزرق. و نعود إلى التفكير فى فاعلية اللون الأزرق و أثرها فى نفس الشاعر، فنكتشف ابن الرومي مكثرأ فى مجال تعلقه بالعيون، و وصفها بالزرقاء. فإن الشاعر استخدم الزرق صفة للعين و تارة عن الحقد و الشؤم و رمز للحساد و الحسد و تارة عن الجمال و حدة النظر، و هنا يبرز جمال الصورة و مقدرة الشاعر اللغوية حيث

يأتي بالمعنى و ضده للفظ الواحد.

و قد يرسم الشاعر لوحة ثياب محبوبه بالأزرق:

يَا ثَوْبَهُ الْأَزْرَقُ الَّذِي قَدْ فَاقَ الْعِرَاقِيَّ فِي السَّمَاءِ
كَأَنَّهُ فِيهِ بَدْرٌ تَمَّ يَشُقُّ زُرْقَةَ السَّمَاءِ

(المصدر نفسه: ١/٢٢٣)

استغرب الشاعر جمال ثوبه الأزرق و أراعه حسنه الذي يفوق العراقي إشراقاً و ضياءً، إنه في ملابسه الزرق يحكى البدر و هو يلمع في زرقة السماء. يطغى اللون الأزرق على لوحة ثياب المحبوب، و هو يستمد زرقة من زرقة السماء الصافية، ليهب هذا اللون دلالات السماء الزرقاء المقترنة بالسّم و الرفعة و الصفاء، فهو يبحث - في نفس الوقت - عن سكينه تحت عباءة السماء يلتمس في لونها الأزرق ما يشيعه من هدوء و اطمئنان. لقد شغف الشاعر باللون الأزرق فأتى به صريحاً (الأزرق، و زرقة) و متضمناً (السماء) رغبة منه في تكثيف هذا اللون في لوحته، و بذلك فقد اصطبغ وطن الشاعر أيضاً باللون الأزرق مساءً تعبيراً عن نقاء وطنه و قدسيته.

و قال في وصف الماء:

وَأَبْيَهَا حَمَتْ سَائِغَاتٍ بَارِدَاتِ النَّطَافِ زُرُقِ الْجِمَامِ
(المصدر نفسه: ٢/٨٩)

فالنطاف يعنى القليل من الماء، و الجمام من الإناء و المكيال: ما تجاوز رأسه بعد امتلائه و هنا صفة للمياه. يقول الشاعر: لقد قدرت تلك المصائب لتكون كالماء البارد في آبار ماؤها صافٍ، «زرق الجمام» المقصود صفة المياه. فنرى بأن الزرقة، في هذه اللوحة، تأخذ طابعاً سماوياً صافياً، إضافة إلى الراحة النفسية المستمدة من هذا اللون.

فالشاعر في استخدامه اللون الأزرق، تارة تأثر بالموروث القديم بدلالة هذا

اللون التي تشير إلى الغدر و الحقد الدفين و الشراسة، و أما الزرقة عند ابن الرومي، -خاصة في العيون- فقد أخذت منحى مغايراً تماماً لما كانت عليه عند الشعراء السالفين، فأصبحت صفةً جماليةً مرغوباً. وكذلك أخذ الأزرق عند الشاعر دلالةً الهدوء و البرودة المستمدة من البحر و السماء اللتين تعطيان الراحة و هدوء الأعصاب لمن ينظر إليهما.

٦.٧. تمازج الألوان

لو حاولنا تتبع إيقاع الألوان في هذه التجربة الشعرية المميزة عند ابن الرومي، لطل بنا المقام و سيغد البحث إلى الإشارة لبعض النماذج (اللوحات و الصور الشعرية) التي ازدهت بالألوان. فقد عمد الشاعر إلى توظيف اللون في صورته الشعرية منفرداً أحياناً و ضمن شبكة متداخلة أحياناً أخرى. و كان في أماكن كثيرة من أشعاره يوظف ترادفاً عجيباً بين الألوان، و يناوبها في صور مختلفة، كي يضيف على لوحاته جمالية سحرية تبقى أثرها في نفس المتلقى على مرّ العصور. و فيما عالجنا من أبيات الشاعر لدراسة الألوان في شعره عثرنا على أبيات تلوح كقوس قزح في طبيعة ديوانه، منها:

فَوَرَدَتْهُ وَشَقَرَّتْهُ أَحْمِرَارُ وَحُمَرَّتْهُ وَخَضَرَّتْهُ ادْهِمَامُ

(ابن الرومي، ١٩٩٨: ٤٩/٦)

جاد الروض ظلّ ووبل ورهام فارتوى من الماء و خصب، فما كان فيه بلون الورد و ما كان فيه شقرة احمرّ حمرة شديدة، و ما كان ذا حمرة و خضرة اشتدّ لونه ضارباً إلى السواد. فتلك الرياض ترى ورودها بألوانها قريبة إلى اللون الأحمر. أما ما كان منها أحمر أو أخضر فإنه يميل الى السواد و الخضرة هنا داكنة شديدة حتى تكاد تميل إلى اللون الأسود. و هذا دليل على أن الرياض غنية بخضرتها و نباتها الجيد المثمر. لقد استخدم ابن الرومي في هذا البيت فناً

من فنون البديع و هو «طباق التدبيج»، و هو اجتماع الألوان في كلام أو بيت شعر، فقد طباق الشاعر بين الإحمرار و الإدهمام، أى: الإسوداد. و قد و ردت هذه الصنعة في القرآن الكريم، و منه قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها و من الجبال حدد بيض و حمر مختلف ألوانها و غرايب سود) (فاطر: ٢٧).

و يقول أيضاً و قد عرض لنا ألوانه الطبيعية تصوير الرسّام:

وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِفًا مِنْ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّمَاءِ بِحُمْرَةٍ عَلَى أَخْضَرٍ فِي أَصْفَرٍ وَسَطٍ مُبْيَضٍّ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلٍ مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ
(المصدر نفسه: ٤/٦٢)

الخود يعنى الصبية الحسنة، و الغلائل بمعنى الثياب التي تجعل على الجسم مباشرة. هذه الأبيات كسجادة فارسية بديعة، تختلط فيها الخيوط و الألوان، فلا تدرى العين أين يبدأ هذا الخيط و أين ينتهى، و أين أول اللون و أين آخره. يقرن في مقطوعة وصف الخمر بوصف الربيع و يقول: إن الساقى الصبيح يطوف بكأسات علينا في حين لبست الأرض ثيابها الأخضر و السماء ثياب دكنة من السحب، و يزين هذه الثياب قوس و قزح بخطوطه المتلونة المتكونة من الحمرة الخضرة و الصفرة و البياض. و لا يفوتنا في هذه اللوحات البارعة من جودة التصوير و مهارة تثبيت الألوان ما يعجز عنهما شاعر غير ابن الرومي.

٧. النتيجة

إنّ قراءة اللون في شعر الشاعر العربي ابن الرومي تشير بشكل عام إلى إيضاح جمالية توظيف الألوان و تعدد دلالاتها في السياق الشعري. تعامل ابن الرومي مع الألوان بوعى كامل فوظفها بدلالات مختلفة، و المتلقى لشعره يلاحظ أنّ

اللون ينتشر بشكل لافت للنظر، كأنه يمشى فى رياض من الألوان. فقد تكررت الألفاظ اللونية الدالة على الألوان بتفريعاتها بشكل لافت فى شعره؛ فحملت فى طياتها الكثير من الدلالات اللونية العامة و الخاصة. لقد امتزجت نفسية ابن الرومي بنفسية الطبيعة. قد أكثر الشاعر فى شعره من استخدام الألوان كثرة بالغة، إنه لم يدع من لون إلا نظم فيه أبيات، من يفتح ديوانه كأنه يفتح باباً على الطبيعة المتلونة و لا غرو من ذلك إذ هو عاش للطبيعة وعاش بها وعاش فيها، كأنى بالشاعر أراد أن يجعل من ديوانه طبيعة فيها الألوان و الأزهار و الأشجار تجرى تحتها الأنهار، أراد أن يجعل من ديوانه متنزهاً لمن يفتحه حتى يتجول فيه ويشم رائحة أوردته و هوائه النقى و يستلقى فى ظل أشجاره. أكثر ابن الرومي من استعمال الألوان التى تزيد فى الطبيعة، ألوان الأزهار و الأشجار و الورود، و هى الأبيض و الأسود و الأحمر و الأخضر و الأصفر و الأزرق. إنه يحسن استخدام الألوان و تسعده على ذلك حاسته التصويرية، على أن يصور ذات الألوان أحسن تصوير و أن يصور كل ما يقع عليه نظره من ذى لون باستعانة خياله الخصب و الخلاق و أن يرسل الصور الطريفة تلو الصور. و هناك سماتان طاغيتان على منجز ابن الرومي الشعرى؛ و هما ذاكرته الشعرية و معرفته اللونية الموروثة. إن الشاعر يستخدم الألوان و يوظفها توظيفاً دلاليّاً مخالفاً لمفهوم العرب أحياناً، و أحياناً أخرى يوظف الألوان كما يفعلون. كما إنّ الألوان هى وسيلة للجوء الشاعر إلى التعبير عمّا يجيش فى صدره، فهو يريد أن يعكس مدى أحاسيسه باللون متأثراً بالطبيعة حوله. فالشاعر ابن الرومي لقد وجد طاقات غنية فى اللون لا يمكن إغفالها. فاتخذ منه أداة للإفصاح عن مشاعره، أو تجسيد أفكاره.

الهوامش:

١. هي اللفظ المستعمل فيما يشبه معناه الأصلي، لعلاقة المشابهة.
٢. وذلك إن لم يكن اللفظ المستعار اسم جنس، كالفعل وما يُشتق منه.

المراجع

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس، (١٩٩٨م)، ديوان، الطبعة الثانية. بيروت: دار و مكتبة الهلال.
٣. ابن منظور، (١٩٩٧م)، لسان العرب، الطبعة السادسة، المجلد السابع، بيروت: دار صادر.
٤. ابو صفيه، جاسر خليل، (١٩٩٠)، الدقة العلمية في مسميات الألوان في اللغة العربية، بنغازي: دار العلم.
٥. الأندلسي، ابن عبد ربه، (١٩٩٥)، العقد الفريد، ج ٣، بيروت: دار الفكر.
٦. آباد، مرضيه و بلاوي، رسول، (١٣٩١)، «دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي»، إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، السنة الثانية، العدد الثامن: صص ٩ - ٣٢.
٧. النعالبي، أبو منصور، (٢٠٠٠)، فقه اللغة و أسرار العربية، تعليق ياسين الأيوبي، الطبعة الثانية، بيروت: المكتبة العصرية.
٨. حمدان، أحمد عبد الله محمّد، (٢٠٠٨)، دلالات الألوان في شعر نزار قباني، رسالة جامعية: جامعة النجاح الوطنية.
٩. حسين، طه، (١٩٦٩)، فصول في الأدب و النقد، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف.
١٠. روشنفكر، كبرى و رحمت اله ياشا زانوسي، (١٤٢٧)، «الطبيعة الحية في شعر ابن الرومي»، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٣: صص ٧١ - ٨٤.
١١. رياض، عبد الفتاح، (١٩٨٣)، التكوين في الفنون التشكيلية، الطبعة الثانية، القاهرة: دار النهضة العربية.
١٢. سامي يوسف أبو زيد و عبد الرؤوف زهدى مصطفى، (١٩٩٨) «دلالة الألوان في آيات القرآن»، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكر، عدد ١٣: صص ٢٢١ - ٢٠٣.

١٣. صالح، قاسم حسين، (١٩٨٢)، سيكولوجية إدراك اللون و الشكل، بغداد: دار الرشيد.
١٤. ضيف، شوقي، (١٩٤٣)، تاريخ الأدب العربي، ج ٤، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف.
١٥. _____، (١٩٦٢)، في النقد الأدبي، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار المعارف.
١٦. طبرى، محمد بن جرير، (١٤١٢)، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت: دارالكتب العلمية.
١٧. عبدالقادر أبوعون، أمل محمود، (٢٠٠٣)، اللون و أبعاده فى الشعر الجاهلى شعراء المعلقات نموذجاً، أطروحة لمتطلبات درجة الماجستير، بإشراف: د.إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية و آدابها.
١٨. عجبنة، محمد، (١٩٩٤)، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها، بيروت: دار الفارابي.
١٩. عمر، أحمد مختار، (١٩٨٢)، اللغة و اللون، الكويت: دار البحوث العلمية.
٢٠. فاخورى، حنا، (١٤٢٤)، الجامع فى تاريخ الادب العربى، الطبعة الثانية، قم: منشورات ذوى القربى.
٢١. فيدوح، عبدالقادر، (٢٠٠٩)، الاتجاه النفسى فى نقد الشعر العربى، عمان: دار صفاء للنشر و التوزيع.
٢٢. الفيروز آبادى، (١٩٩٣)، القاموس المحيط، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة.
٢٣. قاسمى حاجى آبادى، ليلا و مهدي ممتحن، (١٣٩٠)، «الجمال اللوني فى الشعر العربى من خلال التنوع الدلالي»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة، العدد التاسع: صص ٨٣ - ١٠١.
٢٤. محمد محمود شحادة، نصره، (٢٠١٣)، اللون و دلالاته فى شعر البحتريّ، إشراف الدكتور حسام التميمي، رسالة الماجستير، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا.

المصادر الفارسية

١. اسماعيل پور، ابوالقاسم، (١٣٧٧)، اسطوره و بيان نمادين، تهران: انتشارات سروش.
٢. آيتن، يوهانس، (١٣٤٧)، كتاب رنگ، ترجمه محمد حسين حليمى، چاپ دوم، تهران: انتشارات سوره.
٣. شفيعى كدكنى، محمد رضا، (١٣٨٦)، زمينه‌هاى اجتماعى شعر فارسى، تهران: نشر اختران.

٤. علي أكبر زاده، مهدي، (١٣٧٨)، رنگ و تربيت، چاپ دوم، تهران: انتشارات ميسا.
٥. لوشر، ماكس، (١٣٧١)، روانشناسي رنگها، ترجمه ليلا مهراڊ يي، تهران: انتشارات حسام.
٦. مصطفى، محمد حسين، (١٤١٩ق)، تاريخ الشعراء العربيه، ج ١٦-١، الطبعة الأولى، حلب: دار القلم العربي.
٧. نيك بخت، محمود، (١٣٧٤)، از اندیشه تا شعر، اصفهان: نشر هشت بهشت.

